المكونات الخطابية لأدب السيرة الذاتية

د. عصام العسل

تعد السيرة الذاتية من الأجناس الأدبية التي تدور بصورة عامة حول موضوعة الذات بوصفها تمثل نقطة البداية والنهاية للمبدع، كما انها تجعل من الذات القارئة في حيز الترقب لمتابعة شكل كتابي يقترب من المسكوت عنه الذي ساهم في تكوين الشخصية الإبداعية، وقد حفل الأدب العربي والعالمي بالعديد من السير الذاتية التي كتبها مبدعون كان لهم دور مهم في رسم الخارطة الثقافية بمجالاتها المختلفة، ولا يمكن للباحث أن يقف على شكل واحد نموذجي لكتابة السيرة الذاتية يمكن من خلاله قياس القدرة الكتابية لانجاز شكل من أشكال الجنس الأدبي وإنما نحن أمام أشكال مختلفة من كتابة السير الذاتية تتراوح بين كتابات تسجيلية حريصة على ذكر كل حادثة يمر بها كاتب السير حتى وان كانت عديمة الأهمية وبين سير ذاتية تبتعد عن تسجيل الوقائع – وان كانت لا تلغيها تماما - وتقترب من صياغة عمل يقترب من العمل الروائي بتوافره على سرد وشخوص، ويمكن أن نضيف شكلا آخر من أشكال كتابة السير الذاتية يتمثل بأدب الاعتراف، ذلك الأدب الذي يلقى حضورا واهتماما واسعين لدى القراء كونه يفصح عن مساحة للمسكوت عنه ظلت مخبأة في الذاكرة لسنوات طويلة.

إن السيرة الذاتية هي (تاريخ حياة إنسان كتبها بنفسه، وتؤكد على حياة كاتبها الخاصة، كما تستبطن أفكاره ودوافعه ومشاعره الذاتية. وللسيرة الذاتية أهميتان متممتان لبعضهما بعضا.. الأولى أدبية.. والثانية: تاريخية. وهي مصدر قيم لأخذ معلومات تتعلق بالحياة البشرية الهامة في التاريخ ، مع تسجيل التفاصيل الأساسية ، وتفاعل العواطف الإنسانية، وغالبا ما يقدم كاتب السيرة الذاتية روح العصر الحقيقية من خلال سرد حياته الخاصة)[1]

ويعرفها فيليب لوجون بانها: (حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية، وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة)[2]

إن وجود الإنسان على هذه البسيطة وجود لمرة واحدة وفريدة، لا يمكن له أن يتكرر، ولا يمكن أن يعاد صياغته حرفيا من شخص إلى آخر، إنها فرصة نادرة يجب اقتناصها بمهارة واستغلالها الاستغلال الأمثل، لكن التوقف عند كتابتها أمر يختلف كثيرا عن كونها مجرد فرصة، إنها تحول من كون الإنسان أنجز حياته عن طريق الاشتراك بين ما رسمه هو وما رسمه الآخرون له، وبين أن يكون صاحب قرار يتخذه بمفرده ويتحمل جميع تبعاته.

---

[1] - الموسوعة العالمية ، ج٢، ٢٣٨.

[2] - السيرة الذاتية: الميثاق والتاريخ، ترجمة عمر حلي، ص٢٢.

تتجاذب السيرة الذاتية أطراف عدة يمكن أن نعدها مشدات جذب لذاكرة السيرة الذاتية، وتتفاوت أهميتها في سرد الأحداث وفي تقديم صورة كاملة عن كاتب السيرة والأطراف هي :

١ - تاريخ الحياة.

٢ - الوصف الذاتي.

٣ - العواطف.

٤ - الأحداث العامة.

٥ - الأحداث الخاصة.

وفيما يلي مخطط يوضح موقع كل طرف من هذه الأطراف وارتباطه بالسيرة الذاتية

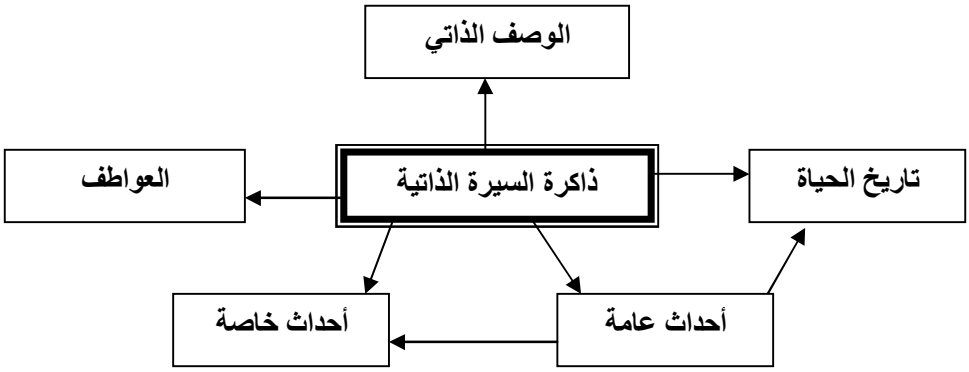

يمثل هذا المخطط مجال اشتغال السيرة الذاتية من خلال ارتباطها بالأطراف الذي يمثل كل واحد منها مساحة تذكر وتشكيل يختلف عن الآخر، فالوصف الذاتي يمثل الجزء الأكبر المكون للهوية في حين تقف الذاكرة العاطفية في اتجاه مغاير فهي لا تحتوي على الذكريات العاطفية المتعلقة بتجارب معينة فحسب بل انها تساعد على ضبط المزاج، فالاعتماد على مناخ معين من الذاكرة يمكن أن يحمل مزاجا معينا من خلال استذكار ذكرى معينة تحتوي على عواطف مناقضة.

أما ذاكرة الأحداث فانها تمثل المكون الأكبر لذاكرة السيرة الذاتية ويمكن الدخول إليها بواسطة مستوى الحدث العام على الرغم من ان المعلومة التي تسعى للحصول عليها تقع ضمن مستوى الحدث المعين، ولذا إذا كان كاتب السيرة الذاتية يحاول استرجاع تذكر معلم في المرحلة الابتدائية فانه سيبدأ بذلك عن طريق الحدث العام ألا وهو الذهاب إلى المدرسة، وبمرور الوقت تتدرج الأحداث المعينة تحت نطاق الحدث العام، وكلما كان الحدث أكثر تميزا كانت ذاكرة ذلك الحدث أفضل.

إن مثل هذه الأطراف التي تتجاذب ذاكرة السيرة الذاتية لا بد من النظر إليها من خلال موقعها في المخطط ويجب أن تظل حاضرة في الذهن أثناء البحث، فالحدث الخاص يتم تذكره عن طريق الحدث العام المرتبط بدوره بذاكرة الأحداث حتى كأن لا انفصام بينهما، كما ان لترتيب ذاكرة الأحداث وفق تفرعين يبدأ بالعام وينتهي بالخاص لا يعني انه ترتيب نهائي فقد يتم تذكر الحدث العام عن طريق حدث خاص وان كان قليل الحدوث في كتابة السيرة الذاتية كما سوف يتضح في تضاعيف البحث.

لقد حدد الأستاذ حسن بحراوي عددا من المواثيق التي تتعلق بأدب السيرة الذاتية وهي الميثاق المرجعي والميثاق الروائي والميثاق السير ذاتي[1] وما يهمنا في إطار بحثنا هو الميثاق المرجعي والميثاق السير ذاتي، فالميثاق المرجعي خاص بفنون القول التي يتوخى الكاتب فيها الدقة العلمية والحقيقة التاريخية التي يمكن التحقق من صحتها بالرجوع إلى المصادر الأخرى أو تلك التي يحيل عليها الكاتب في النص، إذ يعمل هذا الميثاق على تحديد حقل الواقع المراد تصويره كما يحدد كيفية ودرجة التشابه الذي يزعمه النص بالواقع، أما الميثاق السير ذاتي فانه يقوم على تلك العقدة التي يبرمها المؤلف مع القارئ لغاية التأكيد على التطابق بين المؤلف والبطل والرجوع بكل شيء إلى الاسم الشخصي المكتوب على الغلاف.

نسعى في هذا البحث إلى الكشف عن طبيعة المكونات الخطابية لأدب السيرة الذاتية من خلال الوقوف عند بعض المكونات الخطابية وطبيعة اشتغالها بما يؤهل البحث للوصول إلى نتائج تصب في خدمة البحث العلمي.

---

[1] - انساق الميثاق الاطوبيوغرافي، السيرة الذاتية بالمغرب نموذجا:ص ٤٣-٤٦.

يحدد الدكتور أبو شامة المغربي في مقاله (المكونات الخطابية الكبرى لأدب السيرة الذاتية الإسلامية الحديثة)[1] عددا من المكونات الخطابية التي تؤسس للسيرة الذاتية ويعدها أجناسا أدبية صغرى تصب في صياغة جنس أدبي مستقل بذاته وهو جنس السيرة الذاتية، والمكونات هي :

١ - أدب الترجمة الذاتية : وهو فن تاريخ الحياة الموجز، الذي يهدف به الكاتب إلى تقديم نفسه والتعريف بشخصه في صفحات قليلة.

٢ - أدب المذكرات : هو ما يكتبه عادة شخص قام بدور بارز في مجرى الأحداث، سياسية كانت أم اجتماعية، ويهتم فيه أساسا بالأحداث التاريخية التي شارك فيها من بعيد أو قريب، وبالأحوال المحيطة به أكثر ما يحفل بوقائع حياته الخاصة، ذلك إن المذكرات تحتفل في المقام الأول بالشخصيات والأحداث وكل ما يجري خارج وحول الذات الكاتبة.

٣ - أدب الذكريات : هو فن تعبيري يحتفل بالمسترجعات من المشاهد والأحداث والمواقف واللحظات الأكثر إثارة ودلالة في حياة الإنسان، والأكثر رسوخا في ذاكرته، وكتابة الذكريات أوثق صلة بأدب السيرة الذاتية، إذ تتخذ الذكرى محورا ومدارا، وقد لا يعتمد فيها الكاتب الترتيب الزمني، بحيث يكتفي بالتذكر والاسترجاع التلقائي لأهم ما رسخ في ذاكرته وخلف في نفسه أثرا متميزا في الماضي، لكن عندما يتعلق الأمر بصياغة السيرة الذاتية فان الذكريات يجب أن تستجيب لشرط الترتيب الزمني.

٤ - أدب الاعتراف : هو ضرب من الكتابة الأدبية، يغشى من خلاله المؤلف أسرارا شخصية جديرة بالذكر، ومفيدة بالنسبة إلى الآخرين في إضاءة جملة من الخبرات : من ميولات وأهواء وعثرات ونزوات ومشاعر وأخطاء، وآثام وأفكار وآراء وغيرها مما له سمة الأسرار والمكتومات الشخصية.

٥ - أدب اليوميات : ضرب آخر من الكتابة الأدبية، وأحد المكونات الخطابية لأدب السيرة الذاتية، بحيث يتم من خلاله رصد الأحداث اليومية أو وقائع أيام دون أخرى، حسب أهميتها التاريخية، وباعتبار ما تمثله في حياة الكاتب وما حفلت به من مميزات، وهي أيام كثيرا ما يجتمع فيها الذاتي والموضوعي من العناصر، إنها تسجيل مباشر للتجارب لا يغيره أي تأمل لاحق. كما انه يمتاز بالمباشرة الآنية، والتمكن من رصد ومتابعة الأحداث والمستجدات اليومية، مما يسمح للكاتب بتدوين ما مر به في يومه من وقائع هامة ومثيرة بدقة، باعتبار انه يتخذ من مجريات الزمن الحاضر موضوعا لكتابته، وفي هذه الحال لا يسترجع ماضيا، ولا يسجل مستقبلا، لكن (اليوميات) تظل الأقل اعتمادا على تأمل الأحداث والأقل ارتباطا وتماسكا.

---

١ - المكونات الخطابية لأدب السيرة الذاتية

www.merbad.net/vb/showthread.php?t=٢٣٧٥&page=٣

٦ - أدب الرسائل : فن تعبيري غالبا ما يتواصل كتابة من خلال الأدباء والعلماء والمفكرين وغيرهم، وهو مكون خطابي في أدب السيرة الذاتية، ويتخذ في معظم الأحيان صفة الوثيقة داخل هذا الأدب، والتي قد يقصد بها صاحب السيرة الذاتية استعادة الحقيقة التاريخية المشوبة بالزيف والتحريف، ولتكون شاهدا على صدق حديثه من جهة، أو ليتخذها سبيلا إلى بعث مشاعر وأحاسيس وانفعالات خبت جذوتها بفعل طي الزمان لها، إذ يحاول بإحيائها استرجاع اللحظات المثيرة والمميزة التي كانت في تاريخ مضى فضاء لجملة من المواقف، والتجارب وغيرها من جهة ثانية.

إن هذه المكونات الخطابية لا نجدها مجتمعة في سيرة ذاتية واحدة[١] - إلا ما ندر- وذلك لميول الكاتب إلى مكون دون غيره، فضلا عن طغيان وهيمنة مكون خطابي على آخر، ومن خلال التعريف الذي قدمه الدكتور أبو شامة للمكونات الخطابية يتضح ان هناك اختلافا بينا بينها يتمثل في طبيعة المكون ذاته، فأدب الاعتراف على سبيل المثال يجد قبولا لدى المتلقي بوصفه أدبا يتطرق إلى الموضوعات الحساسة والمسكوت عنه، لذا نجده قليل الشيوع في المجتمعات الشرقية المحافظة، في حين نجد مثل هذا النوع من الأدب له قبول ومساحة انتشار واسعة في المجتمعات التي تميل الى التحرر شأن المجتمعات الغربية أو المجتمعات المتأثرة بالحضارة الغربية، وإذا أخذنا مكونا آخر وحاولنا أن نحلل طبيعته على حدة أولا ومن ثم اللجوء إلى دوره ضمن المكونات الأخرى لخرجنا بنتيجة مفادها أن لكل مكون مجال اشتغال يختلف عن مجال اشتغال المكون الآخر، فطبيعة حياة كتاب السيرة الذاتية لا يمكن أن تكون على وتيرة واحدة،كما ان (أي تحليل للنص السير ذاتي لا بد من ان ينطلق من البحث في نظام اشتغال النص، وليس من الفروقات الشكلية والمضمونية له)[٢]، لذا نجد ان البعض قد لا يجد في سيرة حياته شيئا مهما وعلى الرغم من ذلك يشرع في كتابتها، وهو ما ذكره د. إحسان عباس صراحة حين قال : (فاتحني عدد غير قليل من الأصدقاء في أن اكتب سيرتي الذاتية، فأخذ اقتراحهم يمثل هاجسا يدور في نفسي ويستثير ذاكرتي، ولذا توجهت إلى أخي بكر عباس اسأله رأيه في الأمر، فكان جوابه المباشر أن قال لا أنصحك بذلك لان حياتك تخلو أو تكاد من أحداث بارزة، تثير اهتمام القارئ وتطلعاته.

كان ما قاله أخي وصديقي بكر صحيحا، فانا اعرف أنني لم أشارك في أحداث سياسية، ولم أتول مناصب إدارية، ولم أكن عضوا في حزب، ولم أكن مسؤولا عن مشروعات اقتصادية، إلى آخر ما هنالك من نشاطات تعرض الفرد للمسؤوليات الاجتماعية والوظيفية.

---

[١] - لا يمكن أن نعد المكونات الخطابية التي ذكرها الدكتور أبو شامة المغربي نهائية، لذا فقد قام الباحث بإضافة مكون المعلومات العامة الذي لا يمكن إدراجه تحت أي مكون آخر وإنما له خصوصية تميزه وآلية اشتغال مغايرة.

[٢] - حسن بحراوي، انساق الميثاق الاطوبيوغرافي: السيرة الذاتية بالمغرب نموذجا، مجلة آفاق ، المغرب، العدد ٣ - ٤، لسنة ١٩٨٤، ص٣٩.

وعلى الرغم من ذلك كله وجدتني أميل إلى كتابة سيرتي، ومنهجي فيها التزام الصدق فيما اسرده، لا لأن ما اكتبه تاريخ مهم، بل لأنه يمثل تجربة إنسان حاول في كل خطواته أن يخلص للعلم بصدق ومحبة)[1].

إن مثل هذا التوصيف الذي يقدمه د. احسان عباس عن سبب كتابته لسيرته الذاتية والاعتراض الذي قدم له وتجاوزه الرضوخ له رغم قناعته به، وشروعه في كتابة سيرة ذاتية تعبر عن تجربة إنسان يجعلنا منذ البدء على وعي تام بطبيعة المكونات الخطابية التي سوف يلجأ إليها في كتابة السيرة، فنجده يبتعد عن أدب الاعتراف الذي هو ضرب من الكتابة الأدبية، يفشي من خلاله المؤلف أسرارا شخصية جديرة بالذكر، ومفيدة بالنسبة إلى الآخرين في إضاءة جملة من الخبرات، فلا توجد اعترافات – إلا ما ندر – يدلي بها إحسان عباس لقارئه، كما انه ابتعد عن أدب الرسائل الذي يمثل فنا تعبيريا غالبا ما يتواصل كتابة من خلال الأدباء والعلماء والمفكرين وغيرهم والذي يتخذ في معظم الأحيان صفة الوثيقة، فلا توجد في سيرة إحسان عباس الذاتية رسائل متبادلة بينه وبين غيره من الأدباء والمفكرين، لذا نجد ان المكونات الخطابية التي رفدت سيرة إحسان عباس الذاتية تمثلت بـ(أدب الترجمة الذاتية وأدب الذكريات وأدب اليوميات) ويمكن إضافة أدب المذكرات الى حد ما بسبب ان أدب المذكرات هو ما يكتبه عادة شخص قام بدور بارز في مجرى الأحداث سياسية كانت ام اجتماعية، وإضافة أدب المذكرات بوصفه مكونا خطابيا لسيرة إحسان عباس الذاتية يجب أن تكون إضافة حذرة لان الكاتب نفسه لا يجد له دور مهم في الأحداث، إلا ان المتتبع لنتاج إحسان عباس في مجال التحقيق الذي عني فيه بالنصوص التراثية وكتابة النقد الأدبي بل وكتابته لسيرة رائد الشعر الحر بدر شاكر السياب في كتابه (بدر شاكر السياب : دراسة في حياته وشعره) تفصح عن الدور الثقافي الذي لعبه إحسان عباس الا ان جانب الحذر الذي نلتزمه يرتبط بأدب المذكرات كمكون خطابي يعتمد في تشكيله على الدور والحدث التاريخي أكثر من عنايته بالمنجز، ومن هنا يكون دور المكون الخطابي هو رفد النسيج المتكامل الذي يشكل طبيعة الجنس الأدبي والذي يتمثل بـ(السيرة الذاتية).

أدب الترجمة الذاتية :

ذكرنا إن أدب الترجمة الذاتية يمثل فن تاريخ الحياة الموجز، غير ان مثل هذا الإيجاز قد يتخذ أشكالا مختلفة، منها أن يذكر كاتب السيرة الذاتية ترجمته بادئا بعبارة ولدت بتاريخ كذا بمنطقة كذا في عائلة لها مركز في المجتمع أو عائلة بسيطة دون زيادة على هذا الكلام، لان الترجمة تعد تعريفا لا بد منه، كما انها يجب أن تكون في بداية كتابة السيرة.

---

[1] - غربة الراعي ، دار الشروق للنشر والتوزيع . عمان – الأردن، ط١. ١٩٩٦. ص ٥.

لقد كانت الترجمة الذاتية إحدى المكونات الخطابية التي شكلت سيرة إحسان عباس الذاتية، وقد حرص عباس على أن يكون هذا المكون مدخلا ميسرا لسيرته، فنجد تعريفه بالشخصية اتخذ في البدء استخداما لصيغة ضمير الغائب وهو يتحدث عن طفولته، ثم الانتقال إلى ضمير المتكلم والذي ارتبط عنده بمرحلة النضج. وترتبط الترجمة الذاتية عند إحسان عباس بمكان وتاريخ الولادة والذي يقول فيه : (حين حاولت استخراج جواز سفر لأول مرة (١٩٤٦) ذهبت إلى دائرة النفوس في مدينة حيفا واستخرجت شهادة ميلاد، فعرفت أني من مواليد شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٢٠ (أو على وجه الدقة ٢/ ١٢/ ١٩٢٠) ومعنى ذلك أنني ولدت في الشتاء... أما مكان الميلاد فهو قرية عين غزال وتقع على احد امتدادات الكرمل إلى الجنوب من حيفا على مسافة تقارب ٢٥ كيلو مترا، وينبسط أمامها السهل الساحلي الذي يمتد على موازاة البحر)[١].

لقد حاول إحسان عباس في مكون الترجمة الذاتية أن يضفي تساؤلا يلحظه القارئ حين يجد ان الراعي لم يعرف بتاريخ ميلاده إلا بعد ست وعشرين سنة من تاريخ ميلاده (حين حاولت استخراج جواز سفر لأول مرة (١٩٤٦) ذهبت إلى دائرة النفوس في مدينة حيفا واستخرجت شهادة ميلاد، فعرفت اني من مواليد شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٢٠). إن هذه المعرفة المتأخرة بتاريخ الولادة يؤشر وجود مجهولية متعمدة من الراعي بتاريخ قد لا يكون مهما لصاحب السيرة ناهيك عن الأهمية التي يمكن أن تكون محط عناية الآخرين، فضلا عن ان الراعي لا يجد فرقا بين تاريخ ولادته وتاريخ ولادة غيره في هذا الشرق الكبير مما جعله يؤخر معرفته لمدة ربع قرن. ويمكن ان نلحظ ربط معرفته بتاريخ ميلاده بلحظة استخراجه جواز سفر كأن الإنسان لا يتذكر تاريخ ومكان ميلاده إلا حين يريد ان يسافر او يهاجر، وربما وضع إحسان عباس هذه العلاقة الجدلية كجزء من سيرة الإنسان الفلسطيني الذي يحمل جواز سفره متنقلا من بلد إلى آخر، ويحمل وطنه في ارض أصبح مغادرا لها كل حين. كما نجد ان وصفه لمكان الولادة يختلف كثيرا حيث لجأ إلى توصيف جغرافية قريته عين غزال بشيء من الدقة مقدما للقارئ من خلال هذا الوصف صورة واضحة ومتكاملة فيقول : (أما مكان الميلاد فهو قرية عين غزال وتقع على احد امتدادات الكرمل إلى الجنوب من حيفا على مسافة تقارب ٢٥ كيلو مترا، وينبسط أمامها السهل الساحلي الذي يمتد على موازاة البحر).

نقف هنا أمام نصين الأول يقدم مجهولية الزمان في حين يقدم الثاني معلومية المكان وهو ما يعطي دلالة واضحة لأثر المكان ودوره عند الراعي في كتابة السيرة الذاتية، فوصف المكان لا يقف عند حدود زمنية يكون الخطأ واردا وكبيرا في تحديدها، في حين تقف الجغرافيا مؤشرا لبعد الوجود الذي يبحث عنه الراعي الفلسطيني الذي ظل ينقل مكانه أينما حل.

---

[١] - غربة الراعي : ص ٢١.

ان مثل هذه العناية بتقديم تضاريس قرية يمثل قصدا أراد الراعي من خلاله التأكيد على وجود مثل هذا المكان فهو ليس افتراضا، وأنت حين تقرأ مثل هذا الوصف لقرية صغيرة يفجؤك ارتباطها بعديد الأماكن هذا فهناك الكرمل وحيفا والسهل الساحلي والبحر بل ان مثل هذا الترتيب لمواقع الأماكن لم يكن اعتباطيا فمن عمق أراض سهلية منبسطة إلى امتدادات بحر لا نهاية له، انه ارتباط وجودي بين الإنسان وأرضه، فهو يرسم تضاريس مدينته وفق معطيات قد لا تكون موجودة على الأرض إلا انها تشكل وجود الإنسان الفعلي والافتراضي في آن واحد. ولا ينظر الراعي إلى قريته كبقعة جغرافية ضمن البقع الجغرافية الأخرى، وإنما يتم النظر إليها بوصفها كيانا له عمق حضاري يستمد وجوده من العلاقة الوجودية التي حددت وجود الإنسان على هذه البسيطة، لقد نظر الراعي إلى قريته نظرته إلى كون مصغر لا يمكن أن يقتلع منه وإنما هو يحمله في حله وترحاله.

ويمكن اختيار ترجمة ذاتية كتبت بطريقة غير تقليدية تختلف عن النمط الشائع في كتابة الترجمة الذاتية وهي ما كتبه عبد الرحمن بدوي في سيرته التي يقول فيها: (بالصدفة أتيت إلى هذا العالم، وبالصدفة سأغادر هذا العالم، وآية ذلك انه لو لم تتطاير ورقة وتتساقط على الأرض فينحني والدي لالتقاطها، لكان قد ودع الحياة في ذلك اليوم من شهر أكتوبر ١٩١٣. فقد استأجر أحد خصومه قاتلا جاء إلى حيث يجلس في بيت العمدية في مساء ذلك اليوم، ثم أطلق عدة رصاصات في اتجاهه، وفي هذه اللحظة عينها تطايرت هذه الورقة الرسمية التي كان يراجعها " وهي من أوراق المحكمة الشرعية " فانحنى لالتقاطها، فلم يصب الرصاص إلا الطرف الأعلى من العمامة واستقر في باب كان خلفه. وصاح الله حي ؟ وصمت صمتا تاما جعل القاتل يظن انه أصاب من والدي مقتلا، وأخذ يعدو إلى منزل من استأجره. لكن والدي نهض فورا وعدا في أثره، مدركا بحدسه المرهف أنه لا بد في طريقه إلى بيت ذلك الخصم الشرير الذي كان يدعى جادو زرد. ونادى والدي على المارة أن يهبوا معه إلى منزل ذلك الرجل، حتى حاصروه. وفي اقل من نصف ساعة كانت القرية كلها قد تجمعت واقتحمت ذلك المنزل. ولما لم تجد الجاني لأنه هرب إلى منزل مجاور مكشوف انقض عليه احد الرجال وهو مختبئ في أحد أركانه وتم تكبيله بالحبال، والقبض على من استأجره. وقام والدي بتبليغ الحادث بنفسه إلى مركز الشرطة، فجاء رجال الشرطة من فارسكور – على مسافة ثمانية كيلو مترات من شرباص، وقام هؤلاء بالقبض على الجاني ومن استأجره، وسيقوا إلى مركز الشرطة في فارسكور. وكان ميلادي بعد ذلك بأربعين شهرا، في الرابع من فبراير سنة ١٩١٧)[١].

يعد هذا النموذج من الترجمة الذاتية من النماذج التي لا تقتصر على ذكر تاريخ الميلاد ومكانه وإنما تتوسع في ذكر طبيعة المكان والحالة الاجتماعية، والأعراف والتقاليد التي كانت سائدة في العديد من أرياف الوطن العربي في بدايات القرن العشرين، فضلا عن طبيعة الخدمات والحماية الأمنية التي

[١] - سيرة حياتي : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت. الطبعة العربية الأولى، ٢٠٠٠. ص ٥.

كانت توفرها الدولة في ذلك الوقت، وقد أجاد عبد الرحمن بدوي في صياغة كل هذا في عبارات موجزة أراد من خلالها أن يؤرخ لتاريخ ومكان ولادته من جهة، وان يعطي القارئ صورة واضحة عن طبيعة المجتمع الذي ولد فيه من جهة أخرى، وهو كسر التقليد المتبع في الترجمة الذاتية بوصفها تعريفا موجزا لحياة الفرد، وقد فعل الشيء نفسه قبل كتابة عبد الرحمن بدوي بفترة طويلة الدكتور احمد أمين في سيرته الذاتية " حياتي "، فهو الآخر نأى بنفسه أن يترجم ترجمة ذاتية تقليدية، بل انه ذهب ابعد مما ذهب إليه بدوي حين لم يذكر تاريخ ميلاده وإنما قدم للقارئ تصورا فلسفيا عن طبيعة وجوده ووجود الآخرين في هذا الكون من خلال استخدامه لغة علمية تتحول في أحيان كثيرة إلى لغة شعرية تلك اللغة التي سرعان ما تخلى عنها في متن السيرة الذاتية إلا انه ظل حريصا على أن تكون مدخلا لها،يقول احمد أمين : (ما أنا إلا نتيجة حتمية لكل ما مر علي وعلى آبائي من أحداث، فالمادة لا تنعدم وكذلك المعاني. قد يموت الطير وتموت الحشرات والهوام، ولكنها تتحلل في تراب الأرض فتغذي النبات والأشجار، وقد يتحول النبات والأشجار إلى فحم، ويتحول الفحم إلى نار، وتتحول النار إلى غاز، ولكن لا شيء من ذلك ينعدم، حتى أشعة الشمس التي تكون الغابات وتنمي الأشجار تختزن في الظلام، فإذا سلطت عليها النار تحولت إلى ضوء وحرارة وعادت إلى سيرتها الأولى... لقد عمل في تكويني إلى حد كبير ما ورثت عن آبائي، والحياة الاقتصادية التي كانت تسود بيتنا، والدين الذي يسيطر علينا واللغة التي نتكلم بها، وأدبنا الشعبي الذي كان يروى لنا ونوع التربية الذي كان مرسوما في ذهن أبوي ولو لم يستطيعا التعبير عنه ورسم حدوده ونحو ذلك ؛ فانا لم اصنع نفسي ولكن صنعها الله عن طريق ما سنه من قوانين الوراثة والبيئة)[1].

ينفلت احمد أمين في هذا النص من شروط كتابة الترجمة الذاتية مجترحا كتابة ترجمة ذاتية خاصة، بوصف الترجمة مكونا خطابيا تتضمنها السيرة الذاتية، وقد أشار فيصل دراج إلى ذلك بقوله (تتضمن السيرة الذاتية، غالبا، عنصرين متلازمين : تسجيل حياة فردية في مسارها ما يستحق التسجيل، والتوجه إلى قارئ تقصد السيرة مصلحته وتعليمه دروسا لم يعرفها. تكون السيرة في الحالين، صوتا مفردا يعلم غيره،مفترضا تجربة متميزة، لا تختزل إلى غيرها)[2]، ومن هنا لا يمكن ان نعد الترجمة هنا ترجمة ذاتية شخصية وإنما يمكن ان نعدها ترجمة ذاتية لكل من يرغب في كتابة سيرته الذاتية، فلا يوجد ما يميز كتابة احمد أمين عن ذاته، انه اقتراب من سر هذا الوجود الذي لم يكن له يد في تكوينه، لقد أفاد من اللغة في رسم العالم المحيط من حوله إلا انه ابتعد في الوقت نفسه عن الزمان والمكان، لقد أراد أن يتحدث عن الوجود بالنيابة عن الآخرين إلا انه لم يبد شعورا شخصيا يميزه عن الآخرين، فوجود الإنسان –كما يراه احمد أمين – لا يرتبط بمكان وزمان معينين، ولا هو مجرد وثيقة رسمية تبين

---

[1] - حياتي. دار المدى للطباعة والنشر، ٢٠٠٤.ص ١٢- ١٣.

[2] - غربة الراعي والمأساة الفلسطينية: في ١٥/ ٧/ ٢٠٠٧. في:

&table=articles٨٦٩.net/?page=ShowDetails&Id=١٩٤www.group

طبيعة هويته، انه كائن ابعد من أن تحده مجرد أوراق، لقد كان احمد أمين متأملا في هذا الوجود أكثر من كونه ناقلا لحقيقة انه كائن يثير الأسئلة لا طمعا في الحصول على إجابات محددة، وإنما رغبة إثارة الأسئلة ربما تفوق أحيانا رغبة الكشف عن سر الوجود ولعل ما كتبه في ترجمته الذاتية خير دليل على ذلك كما في قوله: (عجيب هذا العالم، إن نظرت إليه من زاوية رأيته كلا متشابها، يتجانس في تكوين ذراته، وفي بناء أجزائه، وفي خضوعه لقوانين واحدة ؛ وإن نظرت إليه من زاوية أخرى رأيت كل جزئية منه تنفرد عن غيرها بميزات خاصة بها، لا يشركها فيها غيرها، حتى شجرة الوردة نفسها تكاد تتميز كل ورقة فيها عن مثيلاتها، فمن الناحية الأولى نستطيع أن نقول : ما أشبه الإنسان بالإنسان، ومن الناحية الثانية نقول: ما أوسع الفرق بين الإنسان والإنسان)[1].

لقد مثل النموذجان (نموذج عبد الرحمن بدوي واحمد أمين) مدخلا يمكن الاستعانة به في كتابة الترجمة الذاتية، وذلك بتحويل شكل الكتابة من شكل تسجيلي توثيقي إلى شكل يقف مع المكونات الخطابية الأخرى في بناء السيرة الذاتية، فلم تعد الترجمة الذاتية مجرد مدخل لدى الكاتبين، وإنما انتقلت إلى وظيفة جديدة تعتمد على الكشف عن أسلوب الكتابة، فهناك بناء لعالم جديد، يطرح من خلاله الكاتب العديد من الأسئلة، كما ان التعريف بمكان وتاريخ الولادة يعني بداية لحظة جديدة لإنسان جديد، فيجب ذكر ما يصاحبها من أحداث ووقائع بطريقة جديدة من أجل الوصول إلى فهم جديد لها. وقد ذكر الدكتور شوقي ضيف إن: (كتابة القصة على هذا النحو المستمد من حياة الكاتب لا تعد ترجمة ذاتية له بالمعنى الدقيق ، لأنه يضيف إلى تجاربه تجارب أخرى من محيطه، ولكنها على كل حال تعد تعبيرا عن نفسه،وان لم يكن تعبيرا دقيقا على نحو ما نجد في الترجمة الشخصية التي تنحصر في تجارب الكاتب ولا يضاف إليها أي تجربة في الخارج ولا أي حادثة من شأنها أن تضع ستارا أو لثاما بيننا وبين حقائقه)[2]، وقد تكون مثل هذه الحقائق التي يذكرها صاحب الترجمة الذاتية لها مجال اشتغال جديد على نص السيرة الذاتية بوصفها تضع حاجزا يستغله الكاتب للتعبير عن آرائه بأشكال شتى.

أدب اليوميات:

ذكرنا إن أدب اليوميات يمثل احد المكونات الخطابية لأدب السيرة الذاتية، والذي يتم من خلاله رصد الأحداث اليومية أو وقائع أيام دون أخرى حسب أهميتها التاريخية، وباعتبار ما تمثله في حياة الكاتب وما حفلت به من مميزات، وهي أيام كثيرا ما يجتمع فيها الذاتي والموضوعي من العناصر. ولأدب اليوميات أهمية مضاعفة تتجلى في كونه يربط سيرة حياة الكاتب بأحداث يومه، فضلا عن تقديمه صورة تكاد أن تكون فوتوغرافية – إذا ما تمت العناية في صياغتها – عن لحظات عاشها كاتب

[1] - حياتي، ص ١٣.

[2] - الترجمة الشخصية، دار المعارف ، ط٤، ص١١.

السيرة وهي بمجمل أحداثها تمثل السيرة الذاتية، ويفضل أن ينظر إلى أدب اليوميات من زاوية الدور الذي تلعبه في بناء السيرة الذاتية، فهل إن مجموع الأحداث اليومية – بغثها وسمينها – تشكل في النهاية سيرة ذاتية، أم ان عملية الانتقاء هي التي تحدد هذه الأهمية، لان هناك أسبابا يجب أن تكون موضوعية ونحن بصدد تسجيل اليوميات، فبعض الأحداث اليومية الروتينية مثل النهوض مبكرا، تناول الإفطار، الذهاب إلى العمل، تناول الغذاء – الخلود إلى النوم، لا يوجد ما يميزها بين حياة شخص وآخر، لأنها جزء من الروتين الذي يمارسه البشر كل يوم – ما عدا استثناءات نادرة- ولكن المقصود باليوميات هو تحويل الحدث الروتيني إلى حدث طارئ، وتتم الكتابة عنه من زاوية تختلف تماما عن كتابة الحدث الروتيني، فنحن نسجله بطريقة تميزه تماما، وتجعل منه في زاوية الأحداث المميزة – وان كانت المقدرة اللغوية للكاتب هي التي تتمكن من نقل الحدث من روتينيته إلى تميزه، ولا يمكن أن نغفل الدور الذي تلعبه اليوميات كوثيقة يقدم الكاتب لان (نص السيرة الذاتية يحكي ماضيا بسرد متواصل فيما تكون المذكرات واليوميات عبارة عن مدونات لها قوة الوثيقة التي لا يمكن تعديل زمنها)[1]. يقول عبد الرحمن بدوي: (وأنا في سن الرابعة عشرة بدأت اقرأ الشعر الانكليزي في نصه الانكليزي، وتصادف أن اشتريت من مكتبة عتيقة صغيرة في شارع محمد علي – وكنت قد بدأت في التردد على دار الكتب المصرية – ثلاثة كتب انكليزية : احدهما – ولا اذكر الآن عنوانه – في تراجم بعض الشعراء الانكليز. وبه صور ملونه جميلة لهؤلاء الشعراء، والثاني ديوان جون ملتون الشاعر الانكليزي العظيم في القرن السابع عشر، والثالث كتاب بعنوان **Maximas and reflection** تأليف خدابخش العالم الهندي الكبير. واهتممت بديوان ملتون خاصة، استظهرت منه قصيدتين هما : قصيدة في يوم عيد ميلاد المسيح، ورثاء لوسيداس ؛ كما أخذت في حفظ النشيد الأول من " الفردوس المفقود". وصرت منذ ذلك التاريخ حتى اليوم، أعود لقراءة القصيدة الأولى عدة مرات في يوم الكرستمس " عيد الميلاد " في كل عام !!)[2].

إن أدب اليوميات يبقى غالبا في إطار الخاص حتى في إشارته إلى ما يمكن أن نعده عاما، فهو يتناول القضايا من واقع كونها مجريات حدث يومي يعيشه الإنسان، ونص بدوي هنا يوضح طبيعة الممارسة اليومية التي يعيشها الفرد في يومه، فهو لا يلبث منتقلا بين قراءة الكتب وحفظ القصائد وترديدها. وهذا هو دأب المتطلع للثقافة، فكأن أدب اليوميات في مجمله يجيب عن سؤال كيف يقضي الإنسان يومه، لكنه لا يقف عند هذه الإجابة وإنما يتوسع بها إلى حدودها القصوى فيتم ذكر ما قرأه وطبيعة المقروء تمهيدا لكشف التكوين الثقافي اليومي الذي يسير في اتجاه التكوين الثقافي العام، كما يتم ذكر ما يشغله في يومه، وان كان اغلب كتاب السيرة يحاولون في يومياتهم كتابة المميز

[1] - حاتم الصكر، كتابة الذات. دار الشروق ، عمان الاردن، ١٩٩٤، ط١، ص١٩٢.

[2] - سيرة حياتي : ص٣٤.

والابتعاد عن المهمل والثانوي. وإذا أضفنا إلى ذلك رغبة كاتب السيرة أن يكون في موقع المركز أثناء تسجيل يومياته لوجدنا ان مكوث الإنسان في موقع يظنه مركزا يجعل منه في كثير من الأحيان يصور ما يحيط به على انه هامش يجب إقصاءه.

وهناك أنموذج آخر من نماذج أدب اليوميات نجده في كتاب حياتي للدكتور احمد أمين يقول فيه: (لا أذكر أني رفهت عن نفسي إلا أياما كنت اخرج إلى كوبري قصر النيل حتى إذا توسطته وقفت زمنا استنشق هواءه واستمتع بمنظره، ثم أسير إلى آخره فأميل ذات اليمين وامشي بين الأشجار والنخيل والنهر حتى أصل إلى مسجد هناك أصلي فيه المغرب أو العشاء، ثم أعود من حيث أتيت.

وأحيانا في ليلة الجمعة كنت أغشى منزل صديقي الشيخ مصطفى عبد الرازق، وكان منزلا يحتفظ بالتقاليد القديمة لبيوت الأسر الكبيرة، يكثر زوارها وتمد موائدها غداء وعشاء، ويطيب فيها السمر، ويطول فيها السهر، فكان أصدقاء الشيخ من الشبان ينفردون بحجرة في البيت يتلاقى فيها شبان الأزهر بشبان الحقوق ببعض الشبان الذين يتعلمون في أوربا...

ومرتين أو ثلاثا جمعت كل قواي وحفزت كل همتي وقاومت كل خجلي، فذهبت إلى استماع الغناء في صالة تسمى " ألف ليلة " بالازبكية من مغنية اسمها " الست وحيدة" واتخذت كل الوسائل للاختفاء، لان من رئي وعلمت به المدرسة كان عرضة للتأنيب والعقاب – هذا كان كل ترفيهي، أما ما بقي من وقتي فللدراسة وللمدرسة)[1].

قد لا توجد فواصل حقيقية تفصل بين أدب اليوميات وأدب المذكرات فجميعها تصب في خانة الذاكرة التي تختزنها وتصنفها بعد ذلك، كما إن ميزة التداخل بينة تماما بينهما، ويعد هذا التداخل سمة تطبع الكثير من أنواع الكتابة مما يجعلها تتأرجح بين التوليف والإبداع الخالص، وقد أشار إلى ذلك الدكتور وجيه فانوس في قوله: (إن أنواع الكتابة تختلف في طبيعة إنشائها فواحد يقوم على " توليف " ما هو معروف ومشترك، وآخر يقوم على " إبداع" جديد لم يخبره الناس من قبل. يمكن للنوع الأول أن يسمى كتابة توليفية، باعتبار انه يقوم على توليف صيغ سبق للناس أن ألفوها عبر التعامل معها أو من خلالها. ويمكن للنوع الثاني أن يسمى كتابة إبداعية، باعتبار انه يقوم على إبداع صيغ لم يشترك، أو لم يألف الناس، في حينه، التعامل معها أو من خلالها)[2]. غير ان ما يميز أدب اليوميات عن غيره ان أحداثه تتكرر مرات عدة، مما يجعل منها أشبه بحالة الاعتياد اليومي، وهي تدخل أيضا في سجل ما يقوم به الفرد يوميا إلا انه ينفلت من روتينه اليومي لينتقل إلى حيز المميز. كما ان تحول الذكريات إلى أدب لليوميات رهن بانقضائه بعد تكراره، أي انه لا يظل في حالة دائمة كما وجدناه في نص احمد

---

[1] - حياتي : ص ٨٣.

[2] - إشكاليات الكتابة الإبداعية بين المبدع والمستقبل، مجلة الموقف الثقافي. دار الشؤون الثقافية – بغداد، العدد ٦،١٩٩٦. ص١٥.

أمين: (وأحيانا في ليلة الجمعة أغشى منزل صديقي الشيخ مصطفى عبد الرازق)، (ومرتين أو ثلاثا جمعت كل قواي وحفزت كل همتي وقاومت كل خجلي، فذهبت إلى استماع الغناء في صالة تسمى: ألف ليلة " بالازبكية) فذهابه إلى بيت الشيخ مصطفى عبد الرازق لم يكن لمرة واحدة ولا ذهابه لاستماع الغناء كان هو الآخر لمرة واحدة، ولكنه تكرر لأيام عدة وانقضى بعد أن ترك أثرا طيبا في نفس احمد أمين.

ان وقع هذا الأثر هو ما يمكن أن نعده السمة المميزة لأدب اليوميات. كما ان اشتغال أدب اليوميات جنبا إلى جنب مع باقي المكونات الخطابية لأدب السيرة الذاتية يجعل منه حافلا بأسلوب كتابي يختلف عن باقي المكونات، فقد نجد جانبا من الحسرة في أسلوب الكاتب وهو يعدد ذكر يومياته بشكل من فقدها نهائيا إلا ان هذا لا يعني وقوف هذا المكون عند هذا الحد، وإنما يمكن أن نعده من أكثر المكونات حرفية في نقل الحدث هذا إذا تجاوزنا الترجمة الذاتية، فاليوميات تخلو في أحيان كثيرة من التأمل وتقف عند حدود التذكر فهي (سجل للتجارب والخبرات اليومية، وحفظ الأخبار والأحداث الحياتية للشخص)[1]، الا انها لا تتضمن أحكاما على الأشخاص أو الأحداث وإنما مجرد ذكر طبيعة لقاء ما أو زيارة إلى موقع ما، ويمكن أن يشكل أدب اليوميات دورا في رفد باقي المكونات الخطابية من خلال التحفيز الذي يقدمه لكاتب السيرة الذاتية، فالعديد من المبدعين والمثقفين يحرصون على تسجيل يومياتهم تمهيدا لكتابة سيرتهم الذاتية في يوم ما، ومن هنا تشكل اليوميات الوثيقة الأكثر صدقا فهي موثقة كتابيا وتاريخيا ولا تعتمد على الذاكرة وحدها شأن باقي المكونات، لذا نجد في أدب اليوميات رافدا مهما وفعالا لباقي المكونات الخطابية لأدب السيرة الذاتية.

أدب الذكريات :

ذكرنا إن أدب الذكريات يمثل فنا تعبيريا يحفل بالمسترجعات من المشاهد والأحداث والمواقف واللحظات الأكثر إثارة ودلالة في حياة الإنسان، والأكثر رسوخا في ذاكرته، ويمكن أن نضيف ان أدب الذكريات يتضمن حكما على المواقف والأشخاص وهو ما يغيب عن أدب الترجمة الذاتية أو أدب اليوميات بل ان البعض يراها أوسع من السيرة الذاتية من حيث المادة ، فالذكريات(من حيث المادة التي تحتويها أوسع مدى من السيرة الذاتية ، فهي تستطيع أن تستوعب الأحداث الخاصة، التي يهتم بها كاتب السيرة الذاتية، كما انها تهتم برصد الأحداث التاريخية وتسجيلها)[2]، لذا نجده يقدم بوضوح ميول صاحب السيرة، وكيف تكونت شخصيته، ولماذا علقت بذهنه هذه الذكرى دون غيرها، فمن

[1] - انغام عبد الله شعبان، السيرة الذاتية في الأدب العراقي الحديث، رسالة ماجستير مكتوبة على الآلة الكاتبة، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، ١٩٩٠، ص٣٨.

[2] - تهاني عبد الفتاح شاكر، السيرة الذاتية في الأدب العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط١، ٢٠٠٢، ص٢٠.

كتاب السيرة من تجده يركن إلى السلم والطمأنينة، تحس الهدوء حتى في كتابته مثل احمد أمين وإحسان عباس، ومنهم من تراه متمردا ناقما على واقعه وعلى المحيطين به، تحس النفور والأحكام المتشنجة في كتابته مثل عبد الرحمن بدوي، وكلا النموذجين لا يغفلان جانب الصراحة إلا ان تقديمها يختلف من كاتب إلى آخر، فنموذج احمد أمين يحاول أن يوجه اتهاماته وأحكامه وآراءه إلى عامة الناس دون تحديد شخص معين، في حين نجد نموذج عبد الرحمن بدوي يحرص على تشخيص أعدائه بالاسم ويلتزم جانبا دون آخر ويدافع عن اتجاه مهاجما الاتجاه الآخر.

يقول احمد أمين : (وكانت المدرسة الثانية هي " حارتي " فقد لعبت مع أبنائها وتعلمت منهم مبادئ السلوك، وتبادلت معهم عواطف الحب والكره والعطف والانتقام، والألفاظ الرقيقة وألفاظ السباب، وانطبعت منها في ذهني أول صورة للحياة المصرية الصميمة في سلوكها وأخلاقها وعقائدها وخرافاتها وأوهامها ومآتمها وأفراحها وزواجها وطلاقها إلى غير ذلك – وكانت حارتنا مثالا للأسر في القرون الوسطى قبل أن تغزوها المدنية بماديتها ومعانيها، فقد ولدت عقب الاحتلال الانجليزي بنحو أربع سنوات، ولم يكن الفرنج قد بثوا مدنيتهم إلا في أوساط قليلة من الشعب. هي أوساط بعض من يحتك بهم من الارستقراطيين وأشباههم. أما الشعب نفسه – وخاصة الأحياء الوطنية كحينا – فلم يأخذ بحظ وافر منها، فحارتنا ليس فيها من يتكلم كلمة أجنبية، بل ليس فيها من يلبس البدلة والطربوش إلا عددا قليلا جدا من الموظفين، وليس في بيوتها اثر من وسائل الترف التي أنتجتها المدنية الحديثة، وليس فيها من يقرأ كتابا حديثا مترجما أو مكتوبا بالأسلوب الحديث، ومن يقرا منهم فإنما يقرأ القرآن والحديث والقصص القديمة كألف ليلة وعنترة، أو الكتب الأدبية الخفيفة، ككليلة ودمنة، والمستطرف في كل فن مستظرف)[1].

إن احمد أمين حين يسترجع الذكريات لا يدع هذا الاسترجاع حرا، وإنما يقدم عنه صورة تفصيلية تتعلق بإطلاقه حكما سلبيا أو ايجابيا، فالذكريات هنا لها وظيفة تتمثل بتكوين الفرد لأحكامه في فترة معينة من حياته، كما إنها تقدم للمتلقي صورة واضحة عن فترة زمنية عاشها كاتب السيرة، فقد جمع احمد أمين في نصه ذكريات عن المدرسة والحارة والاحتلال وثقافته الأولية وجمعها كلها في بوتقة واحدة وضمن سياق واحد وترك للمتلقي عملية إعادة تشكيلها، ويعد أدب الذكريات أدبا حرفيا في الكثير من مواضعه، فالذكرى تتكون من مشاهدات واقعية قام بها كاتب السيرة ومن أحكام اطر بها تلك المشاهدات وان كانت أحكامه عموما تظل على الهامش إذا ما قورنت بأحكام عبد الرحمن بدوي على الأشخاص والأماكن والأوضاع الثقافية والسياسية كما دونها في سيرته، ومنها حديثه عن شخصية أساتذته التي يقول في واحد منها : (وهنا نصل إلى اللغة العربية وتدريسها ومدرسيها، ومعها ننتقل من الجد إلى الابتسام، بل والسخرية والضحك، لان القائمين بتدريسها لا يثيرون إلا الابتسام، أو السخرية

[1] - حياتي: ص ٣١.

أو الضحك، باستثناء شخص واحد لم يبق في السعيدية غير عام واحد أو عامين، وهو الشيخ عثمان أبو النصر، الذي نقل من دار العلوم إلى التعليم الثانوي لأسباب سياسية، إذ كان وفديا، وقد صار فيما بعد نائبا وفديا، وكانت الوزارة هي وزارة إسماعيل صدقي. لقد كان الشيخ عثمان أبو النصر مدرسا مهيب الطلعة بجبته وقفطانه وعمامته. وكان جادا حريصا على كرامته، لا يتبذل و لايترخص مع التلاميذ، وكان في العلم حسنا، وان لم نفهم شيئا، وقد تتلمذت عليه في السنة الثانية، ولاجتهادي وتفوقي في اللغة العربية وآدابها كان يؤثرني بتقديره. ولم أره بعد ذلك إلا في الامتحان الشفوي للغة العربية في البكالوريا... وعلى النقيض تماما كان أستاذا آخر هو الشيخ عبد الرحيم محمود؛ ولم أتتلمذ عليه. لكنه كان هدف السخرية والتشغيب من الطلاب بحيث كان معروفا لكل الطلبة. وكان حين يمشي في الطرقات بين الفصول ينبذ بأحط العبارات، وكان هو يرد عليها بأقبح منها دون أدنى تحرج. كان يرى في نفسه انه من اعلم – إن لم يكن هو اعلم الناس باللغة العربية. ولهذا كان حريصا على تصيد الأخطاء اللغوية والنحوية الشائعة بين الشعراء والكتاب، ويزعم انه وجه النقد لأصحابها مباشرة، فكان يقول مثلا : " بائس : تجمع على بائسين، ومن الخطأ جمعها على "بؤساء " وقد نبهت حافظ إبراهيم : "الشاعر" على هذا الخطأ وطالبته بضرورة تصحيحه في الطبعة القادمة. وكنا لا ندري مدى صحة هذا الخبر لكننا كنا نصدق كلامه حين نذهب إليه وهو واقف في الطرقة بين المدرسين، إغراء بمشاغبته)[1].

لقد ذكر د. مسعود عمشوش إن (جنس السيرة الذاتية لا يقف عند تعرية الذات، بل يسعى كذلك إلى تسليط الضوء على المحيط الاجتماعي والزمني الذي تتحرك في إطاره تلك الذات)[2].

لقد سلط عبد الرحمن بدوي الضوء على طبيعة المكون الثقافي والاجتماعي في فترة دراسته، وكأنه يشير بذلك إلى محاولته التخلص من قيود الماضي الهزيلة من خلال اختياره لقائد ثقافي في المجتمع ومحاولة تقديمه بصورة هزلية تمهيدا لنبذه، فهو يلتزم بالتسجيل والتوضيح لما يدور حوله متجاهلا في أحيان كثيرة ما يدور في داخله وهو ما أشار إليه نبيل راغب بقوله (إن شخصية كاتب المذكرات تلتزم بالتسجيل والتوضيح لما يدور حولها ، أما ما يدور داخلها فيظل في الظل)[3] وقد تكون مثل هذه المحاولة تعبيرا عن قطيعة مع الماضي كما أشار إلى ذلك برهان غليون في قوله (إن التخلص من ثقافة الماضي وتحقيق القطيعة معه لا تتم إلا بالانتقاص من القيم الثقافية التي يمثلها، بينما يستدعي الالتحاق بالغرب والتأثر به تقدير ثقافته وتعظيم دورها، وهكذا يتردد هذا الموقف، وحسب الحاجة، بين توليد

---

[1] - سيرة حياتي : ص ٤١.

[2] - استعادة الزمن المفقود وفن السيرة الذاتية في اليمن : ١٢/ ٧/ ٢٠٠٧. في :

.htm٢٩www.geocities.com/yemenitta/maqal

[3] - فنون الأدب العالمي، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان ، مصر، ط١، ١٩٩٦. ص٤٧.

التاريخ كله من الفكرة ومن الثقافة، وبين رفض الثقافة كقيمة في ذاتها والاستسلام لموقف العدمية الثقافية)[1].

لقد كان عبد الرحمن بدوي حريصا على كشف الكثير من المشاغبات التي تدور في ذهنه، فهو لا يترك الأمور تسير على مجراها أو يتلقى الأحكام على الأشخاص من الآخرين، وإنما كان يسعى دائما إلى تسجيل ذكرياته على الأشخاص والأحداث بما ينقلها إلى إطار جديد يرتبط تمام الارتباط بأسلوب بدوي في الكتابة والمعتمد على الهجوم على الأشخاص وعدم إبداء الثقة بمظهر الإنسان الخارجي، لذا تحول أدب الذكريات عند بدوي إلى شكل كتابي يندمج مع الرصد، فهو يكون صورة أولية عما يحيط به ثم يبدأ بتعديل أو تغيير هذه الصورة حسب الظرف الذي يساعد على كشف الوجه الثاني منها.

المعلومات العامة :

لقد أضفنا مكون المعلومات العامة لما يشكله من اثر في بيان طبيعة الاهتمامات الثقافية والتاريخية والسياسية والعلمية لكاتب السيرة الذاتية، ونود أن ننوه ان مكون المعلومات العامة لا يتقاطع مع بقية المكونات سالفة الذكر، لأنه يسير باتجاه مواز معها، كما ان له طبيعة تاريخية تكاد أن تكون صرفة، لأنه دائما ما يعمد كاتب السيرة إلى اقتطاع حادثة تاريخية أو معلومة تاريخية من سياقها وزجها في سياق جديد هو سياق السيرة الذاتية، كما ان مثل هذه الحادثة التاريخية لا تشكل في الأغلب جزءا من تخصص كاتب السيرة الدقيق، وإنما يتم إدخالها في السيرة لسببين، الأول موضوعي يتعلق بربط الأحداث التي عاشها كاتب السيرة فعلا بما يشبهها تاريخيا، والسبب الثاني جمالي / فني يتعلق بتقنية الكتابة التي اعتاد عليها بعض الكتاب في اقتطاع نصوص معينة من سياقها الخاص إلى سياق جديد يمكن أن نطلق عليه اسم سياق الكتابة الجديدة. ولا يفهم من هذا إن كاتب السيرة الذاتية كاتب تلفيقي، يعمد إلى جمع اكبر عدد ممكن من النصوص التي لا تخص سيرته الذاتية مباشرة ويلفق بينها، وإنما هو - كما ذكرنا - جزء من تقنية كتابية جديدة تضفي على النص شكلا جديدا.

يمكن أن نعد سيرة عبد الرحمن بدوي مرتعا خصبا لهذا المكون، فهو لم يأل جهدا في توشيح سيرته في صفحات عديدة بهذا المكون، والذي أراد به أن يكون مكان استراحة للقارئ، فضلا عن قيمته المعرفية، ومن نصوص هذا المكون ذلك النص الذي يتحدث فيه عن مدينة فارسكور التي كانت فيها المدرسة الابتدائية التي تعلم بها بدوي، تلك المدينة التي سوف يتضح من النص قيمتها التاريخية : (إن لفارسكور ذكرى في التاريخ كان يعتز بها أهلها وهو إن توران شاه، ابن السلطان الصالح أيوب " ابن الملك الكامل بن الملك العادل بن أيوب " قد أقام معسكره في فارسكور بعد وفاة والده أيوب في سنة ٦٤٦هـ (١٢٤٩م)، تلك الوفاة التي أخفتها شجرة الدر زوجته وأم توران شاه إلى أن يصل ابنها

[1] - اغتيال العقل. مكتبة مدبولي. ط٣، ١٩٩٠.

الذي كان حاكما على العراق. وفي معسكره في فارسكور عقد توران شاه المعاهدة مع لويس التاسع الذي قاد الحملة الصليبية السابعة التي انتهت بهزيمته المنكرة في فبراير سنة ١٢٥٠ في المنصورة بفضل بطولة الظاهر بيبرس البغدادي، وانتهى الأمر بأسر لويس التاسع وسجنه في سجن بالمنصورة كان حارسه الطواش صبيح، وبعد عقد هذه المعاهدة التي بموجبها أخلى الفرنسيون دمياط ودفعوا جزية مقدارها ٨٠٠٠٠٠ قطعة ذهبية، ثار المماليك في جيش تورانشاه على هذا الأخير وقتلوه، لأنه كان يمالئ الجنود الذين أتى بهم من العراق ويفضّلهم على المماليك البحرية الذين كانوا القوة الرئيسية في جيش أبيه الصالح أيوب واليهم يرجع الفضل في الانتصار على الصليبيين. وبعد قتلهم لتوران شاه في سنة ٦٤٧هـ (١٢٥٠م) ولوا احد المماليك وهو عز الدين بن أيبك التركماني اتابكا ثم سلطانا، وصار بذلك أول سلاطين دولة المماليك التي خلفت دولة الأيوبيين)[١].

من الواضح إن سيرة عبد الرحمن بدوي لم تكن لها علاقة بأحداث هذا النص، فالنص مروية تاريخية وضعها بدوي في سيرته الذاتية كمكون خطابي يقف مع باقي المكونات التي تشتغل على بناء سيرة ذاتية، إلا انه يمكن النظر إلى هذا النص وطبيعة تكوينه من زاوية ثانية بعيدة عن الالتزام بشروط وتقنيات كتابة السيرة الذاتية، ألا وهي زاوية النص التاريخي ذاته، فالسيرة الذاتية بطبيعتها كتابة عن تاريخ مضى، يؤرخ الفرد من خلالها لتاريخ حياته، فهي تاريخ مصغر لا يعنى بسير الأمم والملوك كما دأبت عليه الكتابات التاريخية العربية، وإنما يعنى بشخصية واحدة مستقلة، ويمكن أن نعبر عنها بأنها شخصية تكتب كتابة مغلقة لا يمكن الإضافة إليها أو الحذف منها خلاف الكتب التاريخية التي يشكل سلسلة متصلة تكتب بيد كتاب (مؤرخين) مختلفين في الزمان والمكان، فما كتبه الطبري في تاريخ الأمم والملوك أكمله بعد قرون ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ، والحال مع النصوص التاريخية التي جعل منها بدوي مكونا من مكونات سيرته الذاتية ينطبق عليها حال الكتب التاريخية من جهة وكتابة السيرة الذاتية من جهة أخرى. فوجه الشبه بين النص والكتب التاريخية انه منقول عبر مرويات دونت وقام بدوي بنقلها حرفيا في سيرته، وهو هنا غير مسؤول عما موجود في النص من أخبار وحوادث، ولا يمكن أن يكون مسؤولا عن درجة صدقها أو كذبها، كما انه لم يعش أحداثها. فضلا عن ان بدوي لا يعد مؤرخا بسبب ان كتابة التاريخ تجعل من المؤرخ أحيانا يبرز أخبارا ويغيب غيرها بسبب طبيعة الميل السياسي أو العقائدي الذي يحمله، في حين ان بدوي جعل من النص مجرد استشهاد تاريخي فرضه ذكره لاسم مدينة فأراد أن يعطيها بعدا تاريخيا. كما يمكن النظر إلى النص من زاوية تتعلق برغبة عبد الرحمن بدوي في التغلغل تاريخيا في النصوص من اجل أن يقدم تصوره عن الماضي وصولا بهذا التصور إلى الحاضر وكأنه يؤكد ما أشار إليه اليوت بقوله: (حين يستطيع المرء حقا أن يتغلغل في حياة

[١] - سيرة حياتي، ٣٠.

عصر آخر فانه يتغلغل في حياة عصره)[1]، فالقارئ للتاريخ لا يمكن أن يدرك طبيعة جميع الصراعات التي حصلت في الماضي لأنه يستقي أحداثها عن طريق ما يصل إليه من خبر تاريخي، والوقوف بحيادية أمام قراءة الخبر أمر ليس باليسير لغياب الظرف الموضوعي الذي يؤهل القارئ من الوصول إليه.

أما وجه الشبه بين النص التاريخي والسيرة الذاتية فيتمثل في إن إعادة ونقل نص تاريخي ضمن نص حديث يعد نسخا تاريخيا جديدا وكتابة تاريخية جديدة، ويمكن أن نضيف انه يمثل تذكيرا بحادثة تاريخية، ففارسكور التي من اجلها استدعى بدوي هذا النص التاريخي سرعان ما غابت في الحديث عن طبيعة حكم المماليك ومؤامراتهم، وكأن بدوي ذكر المدينة ليغيبها، غير ان مثل هذا التغييب لا يعني إلغائها وإنما يدخل في حيز المقارنة بين الماضي الذي تؤخذ منه العبرة والحاضر المعتنى به. ولو أراد بدوي التعريف بالمدينة لعرفها جغرافيا ووصف تضاريسها، لكنه نأى بنفسه عن هذا التعريف مفضلا التعريف التاريخي، فضلا عن إن الحدث التاريخي وغرابته – إخفاء شجرة الدر لوفاة زوجها – جعل من بدوي يجده نصا مشوقا للقارئ قد ينقله من رتابة حديث الإنسان عن ذاته إلى جاذبية الحدث التاريخي، فجهد الذات القارئة اقتصر على الحكاية أو التلخيص، (وحين يقتصر جهد الذات القارئة على الحكاية أو التلخيص، التعليق أو التعقيب، فان هذا الاقتصار يؤكد آلية الاستعادة التي تفضي – بدورها – إلى تقمص القارئ للمقروء، في عملية يغدو معها الماضي مسقطا على الحاضر والحاضر صورة للماضي)[2]. والحال ينطبق على نص تاريخي آخر استشهد به بدوي في سيرته الذاتية يتحدث عن مدينة أيضا إلا انها هذه المرة مدينة ايطالية تدعى بيروجا : (لقد كانت بيروجا نقطة انطلاق الزحف إلى روما في ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٢٢، هذا الزحف الذي اشترك فيه ٢٥٠٠٠ من الفاشست بقيادة أربعة من الزعماء في الحزب وهم : بلبو، ودي بونو، ودي فاشي، وبياناكي، بينما كان موسوليني في ميلانو ينتظر ما سيقرره الملك فكتور امانويل الثالث الذي اضطر إزاء ذلك إلى تكليف موسوليني برئاسة الوزارة، ومن هنا كانت لبيروجا أهمية في تاريخ الحركة الفاشستية، فكان من الطبيعي أن يكون فيها حزب فاشستي قوي)[3].

إذا قرأنا هذا النص من زاوية ارتباطه بكتابة السيرة الذاتية لوجدنا بونا شاسعا بينه وبين نصوص المكونات الأخرى، تلك المكونات التي تمثل جزءا تعريفيا سيريا من حياة كاتب السيرة، وهو لا ينطبق على نصوص المعلومات العامة، إلا إن قراءة النص من زاوية ثانية تتعلق بطبيعة إخراج كتاب يطمح كاتبه إلى أن يكون شموليا في العديد من جوانبه، لوجدنا أهمية هذه النصوص فهي تبين من جهة ارتباط صاحب السيرة – وان كان ارتباطا كتابيا – بالتاريخ، كما انه يقدم فرضية مفادها كيفية الاستعانة بالنص

---

[1] - ماثيوس ارنولد :ت. س. اليوت.. الشاعر الناقد. ص١٩٧.

[2] - د. جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ٩٩٤، ص٢٨.

[3] - سيرة حياتي : ١٠٨.

التاريخي ضمن النص المعاصر، كما يمكن أن نعد وجود مثل هذه النصوص في كتب السير الذاتية نوعا من كتابة سيرة ذاتية مصغرة داخل السيرة الذاتية الكبيرة، إلا إن صفة السيرة الذاتية والتي تعنى بالأشخاص حصرا نراها هنا ترتبط بالمدن والأماكن، فيمكن أن نعدها سيرة مكانية، أو ترتبط بأشخاص فتدخل ضمن مجال كتابة سيرة ذاتية لأشخاص آخرين وان كانت مثل هذه السير لا تتطرق إلى دقائق الأمور لأنها تظل مرتبطة بمصدر واحد ألا وهو الكتاب التاريخي.

قائمة المصادر

- إشكاليات الكتابة الإبداعية بين المبدع والمستقبل، مجلة الموقف الثقافي. دار الشؤون الثقافية – بغداد، العدد السادس،١٩٩٦.
- اغتيال العقل : برهان غليون. مكتبة مدبولي، ط٣، ١٩٩٠.
- انساق الميثاق الاطوبيوغرافي: السيرة الذاتية بالمغرب نموذجا، حسن بحراوي. مجلة آفاق ، المغرب، العدد ٣-٤، لسنة ١٩٨٤.
- الترجمة الشخصية، د. شوقي ضيف، دار المعارف ، ط٤.
- ت. س. اليوت.. الشاعر الناقد. ماثيوس ارنولد.
- حياتي: د. احمد أمين. دار المدى للطباعة والنشر، ٢٠٠٤.
- سيرة حياتي: د. عبد الرحمن بدوي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت. الطبعة العربية الأولى، ٢٠٠٠.
- السيرة الذاتية في الأدب العربي، تهاني عبد الفتاح شاكر. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط١، ٢٠٠٢.
- السيرة الذاتية: الميثاق والتاريخ، فيلب لوجون ترجمة عمر حلي،ط١، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٤م.
- غربة الراعي. د. إحسان عباس. دار الشروق للنشر والتوزيع . عمان – الأردن، ط١. ١٩٩٦.
- فنون الأدب العالمي، نبيل راغب، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان ، مصر، ط١، ١٩٩٦.
- قراءة التراث النقدي: د. جابر عصفور. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. ط١، ١٩٩٤.
- كتابة الذات. حاتم الصكر. دار الشروق ، عمان الاردن، ١٩٩٤، ط١.
- الموسوعة العالمية ، ج٢.

الرسائل الجامعية.

- السيرة الذاتية في الأدب العراقي الحديث، أنغام عبد الله شعبان، رسالة ماجستير مكتوبة على الآلة الكاتبة، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، ١٩٩٠.

مصادر شبكة الانترنت

- استعادة الزمن المفقود وفن السيرة الذاتية في اليمن: د. مسعود عمشوش، ٢٠٠٧/٧/١٠، **.htm٢٩www.geocities.com/yemenitta/maqal**

- غربة الراعي والمأساة الفلسطينية: د. فيصل دراج، ٢٠٠٧/٩/٥ في
www.group١٩٤.net/?page=ShowDetails&Id=٨٦٩&table=articles

- المكونات الخطابية لأدب السيرة الذاتية: د. أبو شامة المغرب. في ٢٠٠٧/٧/٥.
www.merbad.net/vb/showthread.php?t=٢٣٧٥&page=٣ .